**صوم القلوب مع الجوارح.. ضرورة**

**د. أمان محمد قحيف**

**باحث أكاديمي**

**حري بنا أن ندرك أن متطلبات تشريعات ديننا الحنيف وتكليفاته، لا تتوقف عند حدود الجوارح الظاهرة، أو الأعضاء الجسدية التي تقوم بتنفيذ أوامر الله تعالى وتعليماته، بل تتجاوز ذلك لتصبغ القلوب والضمائر والنفوس بآثارها الروحية وتجلياتها الإيمانية، فما أنزل الله تعالى الدين إلا ليصلح به الإنسان -كل الإنسان- داخله وخارجه.. فالحركات الجسدية للصلاة لا تغني تأديتها أو الإتيان بها عن خضوع القلب وخشوعه لله تعالى.. وكذلك الصوم لا يجب أن نختزل معناه في الامتناع عن متطلبات الإنسان البيولوجية (كالطعام والشراب والمعاشرة)، بل يتخطى -بإيمانياته- حدود هذا الإطار ليتعلق بصوم القلب عن العديد من المسائل والأمور التي تصرفه عن الإخلاص لله تعالى والانشغال به دون سواه.**

**ولقد تحدث كثير من علماء الإسلام عن هذا المعنى للصوم وفصلوا القول فيه.. وها هو الإمام أبوحامد الغزالي (450 - 505 هـ / 1058 - 1111 م) أحد علماء الإسلام ومفكريه الكبار الذين اعتزت الحضارة الإسلامية بأقوالهم وآرائهم؛ لأنه نافح عن الإسلام الوسطي المعتدل في كثير من المجالات، فقد واجه الزنادقة والباطنية، وضبط شطحات الصوفية، ونقد ترهات بعض الفلاسفة، وهاجم تيارات الفكر الإلحادي؛ لذلك لقبه الناس «حجة الإسلام وزين العابدين».**

**نقول لقد تحدث الغزالي عن كنه الصوم في الإسلام، وأسال مداد قلمه في التعريف بجوهر هذه الشعيرة التي يحتفي بها المسلمون أكبر احتفاء كل عام مع ظهور هلال شهر رمضان لمدة شهر كامل إلى أن يظهر هلال شوال.**

**ولقد كان الرجل حريصا –شأن جميع العلماء- على أن تكون شعيرة الصوم ربانية وخالصة لله تعالى، وكان حريصا على تنبيه المسلمين إلى السبل التي تتيح لهم الحصول على أكبر قدر من الثواب؛ جزاء إحسانهم لصومهم وطاعتهم لربهم.. من هنا أكد أهمية صوم القلوب وضرورته للارتقاء في مدارج السالكين وطرق العابدين.**

**والحق أننا سنعمد في مقالنا هذا إلى تحليل ما جاء في بعض كتابات الغزالي حول «أسرار الصوم» الواردة بكتابه ذائع الصيت المسمى «إحياء علوم الدين».. هذا الكتاب الذي قيل فيه: «لو كان وحي بعد القرآن لكان في الإحياء». وقيل فيه أيضا: «ليس من الأحياء من لم يقرأ الإحياء».**

**نعم، قد يكون في كلام من امتدحوا الكتاب على هذا النحو بعض المبالغة، لكنها أقوال تعكس لنا -على أي حال– سمو مكانته ورفعة قدره في نظر فريق عريض من علماء الأمة وجمهورها.**

**لقد بدأ الغزالي حديثه عن الصوم بأن كشف النقاب عن أن الصوم ربع الإيمان، منطلقا من قول النبي  " صلى الله عليه وسلم" : «الصوم نصف الصبر، والصبر نصف الإيمان» (1). الأمر الذي يؤكد حرصه على توضيح مكانة الصوم في الإسلام باعتباره شعيرة فرضها الله تعالى على المسلمين، ووعد بإجزال العطاء لمن يؤديها ويقوم بها على الوجه الأكمل.**

**وإمعانا في توضيح هذا المعنى، أشار الرجل إلى عظم أجر الصائمين، فأورد الحديث القدسي الذي قال الله تعالى فيه: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به» (2). ولعله يريد من وراء ذلك توضيح أن أجر الصائم لا يعلمه إلا الله عز وجل، وأنه غير محدود بحدود معينة، فقد يزيد على سبعمئة ضعف إذا أحسن الصائم المحافظة عليه، الأمر الذي يؤكد لنا حرصه على توعية الأمة بخصوصية الصوم كشعيرة تعبدية لها مكانتها السامية في النسق التعبدي الإسلامي.**

**بعد ذلك تحدث الغزالي بلغة الفقهاء عن الواجبات التي يناط بالصائم الاضطلاع بها، وهو ما أسماه بالعلامات الظاهرة التي يجب على الصائم الالتزام بها وإلا فسد صومه، فحددها في عدة أمور نشير إليها على النحو التالي:**

**أولا - مراقبة أول شهر رمضان؛ وذلك برؤية الهلال، فإن غم فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان، ويفصل كلامه هذا بقوله: «نعني بالرؤية: العلم. ويحصل ذلك بقول عدل واحد، ولا يسقط هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطا للعبادة.. وإذا رؤي الهلال ببلدة ولم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وجب الصوم على الكل وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها» (3).. ونشير في هذا السياق إلى أن غالبية الدول الإسلامية لديها مؤسسات فقهية ومراصد وآليات حديثة تعين على التحقق والتثبت من ظهور الهلال أو عدم ظهوره.. ومن ثم يناط بنا متابعة دور الإفتاء والمؤسسات المسؤولة بالدولة، درءا لأي تباينات.**

**ثانيا - النية: وعند الغزالي أنه لابد «لكل ليلة من نية مبيتة معينة جازمة. فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه... ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غدا إن كان من رمضان لم يجزه، إلا من كان في صحراء أو منعزل عن الناس» (4).**

**وينتهي الفقهاء في مسألة النية هذه إلى أنها ركن من الصيام لقول الله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} (البينة:5)، ولقوله  " صلى الله عليه وسلم" : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» (5). «ولابد أن تكون قبل الفجر من كل ليلة من ليالي شهر رمضان. لحديث حفصة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله  " صلى الله عليه وسلم" : «من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صوم له» (أي: يحكم النية والعزيمة)» (6).**

**ونشير إلى أن النية تصح في أي جزء من أجزاء الليل، ولا يشترط التلفظ بها فإنها عمل قلبي، لا دخل للسان المرء فيه، فإن حقيقتها القصد إلى الفعل امتثالا لأمر الله تعالى، وطلبا لوجهه الكريم، فمن تسحر بالليل قاصدا الصيام، تقربا إلى الله بهذا الإمساك فهو ناو، ومن عزم على الكف عن المفطرات أثناء النهار، مخلصا لله، فهو ناو كذلك وإن لم يتسحر.. ويجوز عقد نية الصيام نهارا في صيام التطوع فقط (7).**

**ثالثا - الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمدا؛ فيفسد صوم الصائم بالأكل والشرب، ولا يفسد بالفصد والحجامة والاكتحال... إلخ، ولا يفطره ما يصل بغير قصد من غبار الطريق أو ذبابة تسبق إلى جوفه أو ما يسبق إلى جوفه في المضمضة إلا إذا بالغ في المضمضة فيفطر؛ لأنه مقصر، وهو الذي أردنا بقولنا عمدا (8). ويؤكد الغزالي أن من أكل أو شرب ناسيا ليس مفطرا وعليه استكمال صومه.. والخلاصة أن كل ما يقع دون عمد من الصائم لا يفسد صيامه.**

**رابعا - الإمساك عن شهوة الفرج: وإن جامع ليلا أو احتلم فأصبح جنبا لم يفطر، وتقبيل الزوجة لترضيتها أو لتأكيد المودة بينهما لا يفطر، على ألا يرتبط ذلك بشهوة.. وإن كنا نميل إلى ترك هذه الأمور لما بعد الفطور تبرئة للذمة والتماسا للأحوط.**

**خامسا - الإمساك عن إخراج القيء: فالاستقاء يفسد الصوم، وإن غلبه –أي الصائم- القيء لم يفسد صومه، وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به، إلا أن يبتلعه بعد وصوله إلى فيه فإنه يفطر عن ذلك.**

**بعد ذلك ينطلق الغزالي في التحدث عن صوم القلوب المؤدي إلى الارتقاء الروحي، حيث يقول: «أعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.. أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.. وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام.. وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله -عزوجل- بالكلية» (9).**

**ومن أراد أن يرتقي بصومه إلى صوم الخواص فليتبع الآتي:**

**الأول - غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عز وجل.**

**الثاني - حفظ اللسان عن آفاته، وإلزامه السكوت، وشغله بذكر الله وتلاوة القرآن.**

**الثالث - كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه؛ لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه.**

**الرابع - كف بقية الجوارح عن الآثام والمكاره، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار، فلا يفطر الصائم من طعام لا يثق في كونه حلالا طيبا.**

**الخامس - أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ جوفه، فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملئ من حلال.. وكيف يستفاد من الصوم في قهر عدو الله (يقصد إبليس) وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره وربما يزيد عليه في ألوان الطعام.. ومعلوم أن المقصود بالصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى.**

**السادس - أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقا بين الخوف والرجاء؛ إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين، وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها.**

**ويبين الغزالي أن هناك مسائل يلزم على من أفطر في رمضان القيام بها، فيوضحها فيما يلي:**

**أ - القضاء: فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر؛ فالحائض تقضي الصوم وكذا المرتد، أما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم، ولا يشترط التتابع في قضاء رمضان، ولكن يقضي كيف شاء، متفرقا ومجموعا.**

**ب - الكفارة: فلا تجب إلا بالجماع، وأما الاستمناء والأكل والشرب وما عدا الجماع فلا يجب به كفارة، فالكفارة عتق رقبة، وإن أعسر فصوم شهرين متتابعين، وإن عجز فإطعام ستين مسكينا.**

**ج - إمساك بقية النهار: فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه، ولا يجب على الحائض إذا تطهرت إمساك بقية نهارها ولا على المسافر إذا قدم مفطرا... والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق، ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيما في أوله، ولا يوم يقدم إذا قدم صائما.**

**د - الفدية: تجب على الحامل والمرضع إذا أفطرن خوفا على وليدهما.. وكذا الشيخ الهرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا، والمريض الذي لا رجاء في شفائه.. ونلفت إلى أن دور الإفتاء هي التي تقوم حاليا بتحديد مقدار الفدية –ماليا- بحسب ظروف كل بلد إسلامي.**

**ثم ينطلق الغزالي يذكر أقوال بعض الزهاد في الصوم ليذكرنا بتصوراتهم الإيمانية لهذه الشعيرة التي فرضها الله تعالى على عباده ليرحمهم بها.. ونقتطف من بستانه ما ورد عن الحسن بن الحسن البصري أنه مر بقوم وهم يضحكون فقال: إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضمارا لخلقه يتنافسون فيه لطاعته، فسبق قوم ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته: أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك (10).**

**ويؤكد أهمية تعلق النوازع الداخلية للصائم بالله تعالى، مع حرصه على تحقيق أقصى ما يمكنه من درجات الكمال في الصوم من أجل التقرب إلى الله تعالى، مشيرا إلى أن العلماء الربانيين «يعنون بالصحة (أي صحة الصوم) القبول.. وبالقبول الوصول إلى المقصود. ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدية.. والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان، فإنهم (أي الملائكة) منزهون عن الشهوات... والملائكة مقربون من الله عز وجل، والذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم، فإن الشبيه من القريب قريب» (11).**

**وخلاصة ما نود التأكيد عليه أنه لا يكفي الحرص على تأدية صيام الجوارح فحسب، بل إن القلب لابد أن يصوم عن الحقد، والحسد، والكراهية، والبغضاء، وعن التفكير في كل ما يضر الإيمان ولا يخدمه.. ونشير إلى أنه يناط بالمسلم –خصوصا عند صومه- أن يكثر من ذكر الله تعالى بقلبه تعبيرا عن الإخلاص لله تعالى وطلبا لاطمئنان اليقين ورسوخ العقيدة، وصدق الله العظيم القائل: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (الرعد:28).**